النهار

موسيقى - هاروت فازليان قاد الأوركسترا الفيلهارمونية إلى راخمانينوف وجحيمه مارات غبيدولين غامر في الكونشرتو واثق الخطى مرهفاً

مي منسى | 30 أيلول 2013 | 00:45

(مروان عسف)

موسم جديد من الموسيقى الراقية، أطل مع أوراق الخريف، واعداً كما عهدناه بأن تظل الأوركسترا الفيلهارمونية الوطنية، تطعمنا من خيرات الموسيقى العالمية على امتداد أزمنتها، وتدهشنا بتنويع مذاقاتها، إن في استضافتها قادة عالميين يحفرون في جسم النغم، أم عازفين متوّجين بجوائز دولية، في عزفهم المنفرد مع الأوركسترا، طعم آخر للكونشرتو وأسلوب ومزاج يضفيان على الوليمة توابل تحرّك شهيّتنا على الاستيعاب والتجدد.

مارات غبيدولين العازف الروسي، القدير، دخل صومعة سيرج راخمانينوف، تقيا، متصوّفا، ثائرا، يمج من كل قطرة نغم نشوة ويقظة، فبعث إلينا بين نور وظل، بين ليل ونهار، ما عثرت عليه أنامله المنقّبة في أسرار هذه التحفة الموسيقية المحوكة على نول من التأملات الغنائية والهيجانات العاصفة.

في هذه البداية لفصول جديدة من الاحتفالات بالموسيقى والغناء، كان الضيف على كنيسة القديس يوسف للآباء اليسوعيين، شابٌ في سيرته ما يثير الإعجاب والتقدير. مارات غبيدولين، لبّى دعوة المعهد الوطني اللبناني للموسيقى بالتعاون مع المركز الثقافي الروسي في لبنان، بصفته عازف بيانو، ليحكي لنا بأدائه، عن عبقري من بلده، سيرج راخمانينوف. بيد أن خلف هذه المرآة العاكسة مهارة العزف حتى التوأمة مع مؤلّفها، فها هي سيرة هذا الضيف في البرنامج تعرّفنا إلى كاتب وشاعر وباحث كتب مقالات في مواضيع فلسفية الى كونه حائزاً دكتوراه في الموسيقى من معهد موسكو للموسيقى وجوائز تقديرية عدة.

النوطات الأولى التي انطلقت من الملامس، كانت الحافز لكي تتحد الكمانات وتعلو نفساً واحداً، ملوّنةً بتنويسات البيانو الشاعرية. من البعيد يعلو نشيد حزين من الكلارينيت والفلوت. هذه المسارّة سرعان ما انقلبت الى أجيج، فالملمح الشاعري لهذا الكونشرتو دخل شيئا فشيئا في أعاصير يتكبدها البيانو بمفرده، فيما الوتريات حوله، حارسة عربداته بهذه اللازمة العائدة كتهويدة عذبة تخفف من وطأة ما يوحيه عزف هذا الملتاع جسدا ونفسا، من تمزقات وآلام.

المهارات التقنية النافرة، المتفجرة، كما هي بارزة في اداء مارات غبيدولين، لم تكن كافية لكي يتجلى كونشرتو راخمانينوف ويتعالى فوق القشور الأرضية، بل هي الرؤيا الشاملة بما للبيانو من تفاعلات نارية على نورانية الآلات الوترية والخشبية. أجل، فالكمانات الرهيفة كانت سورا حاميا جنون البيانو، وكم كان اداء مارات معبرا له. فهل باندماجه الكلي في راخمانينوف، كان مارات محرقة ذاته، يشعل أتون الموسيقى ليحترق فيها؟!

في الحركة الثالثة بدا المشهد صارماً، قاسياً، تحت اصابع هذا العازف الملهم، فيما الأقواس والكلارينيت تبللان الجفاف بعاطفتها، حتى كأن ما يشبه الحنين عبر على سكة الملامس فأسبغ عليها حنانه، ونحن الحضور تحت وطأة هذه اللازمة الخلاصية.

ليلة الجمعة كانت مكرّسة لراخمانينوف. رقصات سمفونية هي ذلك الرهان المعقد الذي سار في اشواكه هاروت فازليان والأوركسترا، في تنقيب حسوي عن ملامح راقصة بين ألسنة من نار. هذا هو راخمانينوف، كما اندرج في القائمة، والأوركسترا قادرة على هذا التحدي الذي سعى فيه المؤلّف الى ميزان بين الانفعالات وعكسها. فقد يكون ايقاع الفالس المحرّك الكبير لمناخ هذه الطبخة السمفونية، اذ كان للمايسترو الحصة الكبرى من الأداء. راقصا كان، قائداً لا لأوركسترا فحسب بل لهذا الاحتفال الراقص الذي وجد مكانه في جحيم راخمانينوف.

may.menassa@annahar.com.lb